

قراءة في براديغمات سوسيولوجيا التربية

أ/ جناوي عبد العزيز.

جامعة زيان عاشور - الجلفة-

تاريخ النشر: 01 أبريل 2019.	تاريخ القبول: 31 جويلية 2018	تاريخ الإرسال: 04 أبريل 2018
ملخص: إن طبيعة النظام التعليمي في المجتمعات المعاصرة و في خضم النقاشات الراهنة يتطلب قراءة تتسم بالتنوع لمرجعيات فكرية و دراسات امبريقية لفهم الظواهر التربوية. هذه القراءة تندرج ضمن براديغمات سوسيولوجية كنموذج إرشادي و بنائي منطقي لدراسة القضايا و المشكلات التربوية في بعدها الميكرو-سوسيولوجي و الماكرو- سوسيولوجي.		
الكلمات المفتاحية: براديغم، براديغم تفاعلي، براديغم محدد، الاختيار العقلاني.		
Summary: The nature of the educational system in contemporary societies in the midst of current debates requires a diversified socio-educational reading as intellectual reference, and even empirical studies to understand the educational phenomena within societies. This reading includes sociological paradigms, as a model of construction and logic to study educational problems in its microsocial and macrosocial dimensions.		
keywords: Bradygem, Bradyham Interactive, Bradygam Specified, Rational Choice.		

1. مدخل إبستمولوجي

بداية استعمل البراديغم Paradigme في حقل اللسانيات لشرح القواعد اللغوية و أول من استعمل هذا المصطلح فردينان دوسوسوير Ferdinand de Saussure (1857-1913) في مقابل المعيار أو التركيب التعبيري Syntagme في دروس اللسانيات العامة سنة 1916. يرجع النظام التركيبي للغة ليس لخصائصه الصوتية بل لوظيفته في الفرق بين اللغة Langue و الكلام Langage. في ستينات القرن الماضي بدأ الاهتمام به و استعمل كنموذج في البحث العلمي و الإبستمولوجيا، وكان توماس كون Thomas Kuhn أول من اهتم بالبراديغم كموجه للبحث العلمي المعاصر باعتباره مجموع من التساؤلات المبنية منطقيا و الممارسات التي تصاغ لفهم و تفسير الموضوع العلمي لتعريف تخصص علمي في فترة زمنية.

إن مصطلح براديغم Paradigme مهم في مراحل البحث العلمي و منذ صدور كتاب بنية الثورات العلمية لتوماس كون (1922-1996) The Structure of Scientific Révolution، و ترجم إلى 19 لغة بيعت 740000 نسخة من 1962-1990. أحدث الكتاب ثورة في مجالات " العلوم الصلبة " Sciences Dures كالفيزياء ، الكيمياء والأحياء ، و كان له دور في تغيير المفهوم الكلاسيكي للبراديغم في التاريخ العلمي السائد بالنسبة للعلوم من حيث المنهج و المضمون (مثل براديغم الحركات لإسحاق نيوتن ، براديغم أصل الأنواع لشارلز داروين ، براديغم الكهرباء لبنجامن فروكلن ...)، و هي مرجعيات لنظريات البحوث العلمية باعتبارها براديغمات مهيمنة Paradigmes Dominants لها تأثيرات عملية و منهجية لممارسات البحث العلمي.

يرى ستيف فولر Steve Fuller أن البراديغم كمرجعية ثابتة للتاريخ العلمي هو " قطيعة ناسخة للبحث (Angèle Kremer-Marietti, www.dogma) و حسب توماس كون أن البراديغمات المهيمنة تاريخيا كانت تعيق سيروية البحث العلمي، فالمفاهيم تتغير و المعتقدات تتبدل و الأفكار تتأثر بالتغيرات و التطورات الفكرية والاجتماعية ، فتطور التاريخ العلمي للبحث يؤدي إلى نشوء معارف و أفكار جديدة و بالتالي فهي طريقة لرؤية العالم من جديد. إن البراديغم هو طرح فكرة أن بعض الأمثلة المقبولة من الممارسة العلمية الفعلية هي أمثلة تشمل القانون و النظرية و التطبيق و استعمال الأدوات التي تقدم نماذج تصدر عنها تقاليد للبحث العلمي متناسق منطقيا . (توماس كون، 2007، ص 64).

فالبراديغم لا يمثل توصيف بسيط للظواهر الطبيعية، بل نموذج لتفسير هذه الظواهر بناء على قضايا و معطيات جديدة قد تحدث ثورة مما يستدعي إعادة النظر في طرق البحث و الممارسة العلمية أي ضرورة وجود أو إنشاء براديغم جديد "براديغم ثوري" Paradigme Révolutionnaire لرؤية العالم من جديد.

تشير مرغريت ماسترمان Margaret Masterman أن البراديغم منظور سوسيولوجي و ليس فلسفي ويعمل حتى و إن لم يكن نظرية، إذ تميز بين ثلاث فئات من البراديغمات في العلوم:
(Margaret Masterman , www.Communicationorganisation)

- براديغم ميتافيزيقي أو ميتابرايديغم Méta-paradigme : يمثل مجموع المعتقدات، طريقة جديدة لرؤية الأشياء ، مبدأ منظم و محدد ، إدراك.

- براديغم سوسيولوجي Paradigme Sociologique : هو مجموعة مؤسسات أو مفهوم محدد و موجه في ظروف جديدة أو دقيقة.

- براديغم مصطنع Paradigme Artefactuel : نص علمي كلاسيكي ، مصدر لأدوات البحث أو نظام أجهزة.

ساهمت التطورات و التحولات الاجتماعية و الاقتصادية للمجتمعات الأوروبية في إعادة القراءة السوسيولوجية للأفكار الرائدة Idées Maitresses، التي شكل روادها الاتجاهات السائدة في الفكر السوسيولوجي الكلاسيكي (أوجست كونت، كارل ماركس، اميل دوركايم، ماكس فيبر، جورج زمل،...) المبنية على ثنائية العالم الاجتماعي " الفرد Sujet / البنية Structure"، و فهم العلاقة بينهما كضرورة للمعرفة السوسيولوجية. هذه الأفكار الموجهة للمعرفة السوسيولوجية أصبحت مصدر إلهام للسوسيولوجيا المعاصرة. فالعالم الاجتماعي يتغير كل لحظة و العلاقات تتجدد و تتشكل و الجماعات تتغير باستمرار.

هذه المستجدات بالإضافة إلى ضرورة التفسير المنهجي للأفكار الكبرى للسوسيولوجيا ساهمت في انبعاث فكر حديث و معاصر متعدد و متنوع و نمو مذهب للبحوث السوسيولوجية كمنحى علمي للعلوم الاجتماعية، مما ساهم في تأسيس براديغمات كمجموعة من المفاهيم و الأفكار الموجهة و المبنية، القيم و الخبرات كروية جديدة للعالم الاجتماعي. فمثلا ينظر لبراديغم الصراع في المجتمعات من منظور التوترات،

المعارضة و اختلافات المصالح بين الفئات الاجتماعية أو ممارسات الهيمنة، و من منظور براديغم الوظيفي نوع من عمليات التكيف والإدماج و التوازن، حيث تصبح هذه البراديغمات نماذج "صارمة" في التحليل.

2. لماذا سوسيولوجيا التربية؟

ساهم حقل الرهانات الاجتماعية حول التعليم في العقود الأخيرة من خلال مجموعة من النقاشات التي تميزت بقوة ملامح النظريات السوسيولوجية و التطورات التاريخية، حيث يتطلب الموضوع مدخل عام لفهم الخلفية الفكرية و الاجتماعية لتشكل سوسيولوجيا التربية و المساهمة في الاهتمام بالقضايا التربوية المعاصرة:

- تشكل معرفي في بدايات القرن العشرين في دراسات المشكلات التربوية من حيث طرح الإشكاليات و المفاهيم و المناهج وظهور اتجاهات و تيارات فكرية تربوية.
- تناول المواضيع التربوية (الذكاء، الذاكرة، قدرة الاستيعاب، التفكير...) بطرق تحليلية (الإحصائيات، الاختبارات النفسية...) و توظيف المفاهيم السوسيولوجية في المجال التربوي (البنية، الفعل ، النظام ، الظاهرة...)، حيث أن تفاعل هذه المواضيع مع تخصصات أخرى (علم النفس، الفلسفة ، البيداغوجيا، علم الوراثة...) نتجت عنها حقول معرفية حديثة منها علم النفس الاجتماعي ،علم النفس التربوي،علم البيداغوجيا، اقتصاديات التربية علم النفس المدرسي، فلسفة التربية،...
- تكونت العلاقة بين السوسيولوجيا و التربية كمجال علمي في الدول المتقدمة التي واجهت مشكلات تربوية كمشكلات اجتماعية، و برز دور المدرسة كمؤسسة فاعلة في التعليم و التكوين نتيجة النمو الاقتصادي و تطور سوق العمل و الزيادة في الطلب الاجتماعي على التعليم خاصة بعد الحرب العالمية الثانية.
- هذا الطلب الاجتماعي المتزايد و الانفجار التعليمي في البلدان الصناعية خاصة في بدايات الستينات و السبعينيات حتى الثمانينات من القرن الماضي في الدول الأقل نموا، نتج عنه ظواهر تربوية ذات أبعاد اجتماعية، اقتصادية و ثقافية (اللامساواة في فرص التعليم، الحراك الاجتماعي عبر التعليم ،التعدد الثقافي في المجتمع الواحد و صراع الإثنيات ، الهجرة إلى المجتمعات الأوروبية ، التعليم الجامعي ، التكوين المهني، تعليم المرأة ، محو الأمية...).

" التعليم هو أحد الأماكن الهامة لتطبيق المشروع السياسي بحيث أصبح النظام المدرسي، باسم التنمية الاقتصادية وإضفاء الطابع الديمقراطي على التعليم، قد تطور تطورا كبيرا في جميع مجتمعات الرأسمالية المتقدمة. وكانت الإصلاحات ذات أهمية خاصة في المرحلة الثانوية" (Pierre Dandurand, Émile Ollivier, octobre 1987) و هي جزء من حركة إضفاء الطابع المؤسسي على علم الاجتماع التربوي، ومن ناحية أخرى يؤدي إلى توجه المنظور الاجتماعي للتعليم إلى أهمية الدراسات الإحصائية الكبيرة للحراك لتأهيل الفرد (التدفقات للأعداد الهائلة للتلاميذ، تزايد الأفواج التعليمية، دراسات المسوح).

3. براديغمات سوسيولوجيا التربية

بداية انقسمت الاتجاهات في السوسيولوجيا الكلاسيكية من حيث الاختلاف في البناء النظري إلى: (بيرسي كوهن، 1985، ص 38)

- الكليانية Holisme: يتناول الاتجاه التكاملي للمجتمعات أو الكليات الاجتماعية على اعتبار أن لها سمات مشابهة للوقائع العضوية و الكائنات الحية، كما أنه يؤكد فكرة الانتماء إلى النسق بالنسبة للكليات الاجتماعية (الماركسية ، الوظيفية).

- الاتجاه الجزئي أو الذري Atomisme : باعتباره سمات مشابهة للموضوعات الآلية الميكانيكية سواء بصورة مستقلة أو إعادة الأجزاء لمكانها، كما يؤكد فهم طبيعة الوحدات الفردية التي تشكل الكليات الاجتماعية الفعل الاجتماعي للمجتمع (التفاعلية الرمزية، الظاهرية...)

رغم هذا التقسيم " الكاريكاتوري" إلا أنه ساهم في تنوع الدراسات الاجتماعية و التربوية كمقاربات سوسيولوجية حديثة لتفسير و تحليل الواقع الاجتماعي مع تطور الوسائل التكنولوجية و تعدد دور المؤسسات التي كانت فيما سبق تنحصر في العائلة و المؤسسة الدينية إلى مؤسسات التعليم من الابتدائي إلى الجامعي و المهني، حيث ساهمت في حركية اجتماعية نشطة. و اعتمادا على التصنيف الكلاسيكي السابق يمكن أن نميز بين نوعين كذلك من البراديغمات :

- براديغم الفرد/الفعل: هي براديغمات تفاعلية Paradigmes Interactionnistes بناء على تصنيف العالم الاجتماعي الفرنسي المعاصر ريمون بودون Raymond Boudon، فالظواهر الاجتماعية تفسر كنتيجة لتركيب و تجميع لمجموع الأفعال الفردية، فالأفعال هي سلوك موجه للبحث عن هدف أو أهداف .

براديغم البنية/المجتمع: تصنف كبراديغمات محددة Paradigmes Déterministes بحسب ريمون بودون حيث الظاهرة الاجتماعية تفسر على أساس نتيجة حصرية للسلوكات المحددة سابقا " نعتبر نموذج كحتي إذا و فقط يفسر الفعل حصريا انطلاقا من عناصر سابقة لهذا الفعل " . (Nathalie Bulle, 2000, p94.) هذا النوع المحدد للفعل هو من النوع السببي للسلوكات .

1.3 براديغمات تفاعلية

تؤسس براديغمات تفاعلية في تحليلها السوسيولوجي من توجهات أفعال الفرد ذات دلالة قصدية هي شرط لتحديد النشاط الإنساني حيث تتعدد التفسيرات لفهم العلاقات الاجتماعية من الاقتصادي، الديني، للغوي... داخل و خارج النظام التعليمي .

1.1.3. التعليم والعمل المنتج

يؤسس براديغم من النوع الماركسي في تحليله السوسيولوجي لمفهوم الإيديولوجيا كشرط للتحرر و الوعي و هو مرتبطة أساسا بالنشاط المادي ، فالأفكار لا تحدد العالم بل العالم هو الذي يحدد الأفكار. و هذا التحرر يتحقق إلا بالقطيعة مع الأشكال الاجتماعية المختلفة و ينتج لنا ما يعرف بالإنسان الكامل .Homme Complet

إن أشكال التفكير هي الحقيقة الموضوعية تتمظهر في نشاط العمل المادي ، و هذا لا يتحقق إلا ضمن مسار تعليمي نوعي لعملية الصراع بين الطبقة المستغلة التي تستعمل أفكارها عبر التعليم لتحقيق مصالحها. فهي تملك وسائل الإنتاج المادي و المعنوي أو الفكري. و هو يتحدث عن تطور الإنسان على أساس عالم مادي، ثوري من اجل التنشئة و التطوير الإنساني في كل الاتجاهات، بعد العمل على اندماج المدينة و الريف، التعليم والإنتاج ، العمل اليدوي والعمل الفكري، حتى أن الرجل لن يكون الشخص "الخاص" ولكن الرجل الاجتماعي هذا إذا كان للشيوعية معنى. (Karl Marx, Friedrich Engels, 1976, p26)

إن اللامساواة في المعارف هي وسيلة للحفاظ على كل اللامساواة الاجتماعية في التعليم العام و تعيد إنتاجها عبر الأجيال. إن العمل المنتج هو إحدى الوسائل القوية لتحول المجتمع، و مفهوم مركزي في العملية التربوية عند ماركس، إذ ترسخ في الأطفال أحكام مسبقة حول العائلة العمالية لأنها تعلمه أفكار الطبقة المهيمنة.

فالمدرسة في النظام الرأسمالي بين يدي الطبقة الرأسمالية و هي سلاح قوي للخداع و للحفاظ، حيث تتجه لمنح الشباب تربية تجعلهم مستقيمين و مستسلمين للنظام الحالي و تمنعهم من اكتشاف التناقضات الداخلية، فالمدرسة البورجوازية هي قالب تحضر للمصنع و المكاتب المؤسسة للترويض لسجين أجير. المجتمع الذي أخطأ في سجن الآباء في المكاتب يمكن كذلك أن يضيف بسخافة أخرى في الغلق على الأطفال طيلة السنة في الداخلية حيث انه منزوع من الدروس. (ibid..pp 30-31)

إن المدرسة تضع النظرية أولى من الممارسة و كل الأنظمة الحضارية تقع في هذا الخطأ لا تعرف كيف تشغل الطفل و هي مضطرة لتركه في عطلة حتى 6 أو 7 سنوات ، و هو السن الذي يجب أن يصبح فيه عامل ماهر ثم في السابعة يعلمونه النظرية و الدروس و المعارف التي لا توقظ فيه الرغبة ". (ibid. p31)

إن التحالف بين الدراسة و العمل المنتج لا يمثل أداة للتنشئة الاجتماعية بالمعنى الكلاسيكي لسوسيولوجيا التربية لكن أداة لعالمية التفكير بفضل إمكانية معرفة شاملة للعالم داخل الجيل حيث سماه ماركس " الإنسان العميق l'homme profond ".

2.1.3. التربية وأنماط السلطة

إن براديغمات التفاعلية من النوع الفيبري (نسبة إلى عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر) تتضمن منهجا تأويليا في فهم الفعل الاجتماعي و هو موجه نحو هدف أو أهداف محددة من حيث أنه:

- عقلاني: معرفة الفاعل الاجتماعي للموقف الاجتماعي بحيث يملك أفكارا و نماذج من المعرفة لاختيار الفعل أو الأفعال.
- قصدي لكل فاعل اجتماعي هدف أو أهداف و يعمل على تتبع تنفيذ هذه الأهداف.
- له دلالة: أهمية المعايير و القيم التي توجه اختياره و التزامه بهذه الأهداف.

هذه الأفعال التي لها دلالة قصدية مبنية على فرضية عناصر سابقة لتوجيه الفعل " تفسر سلوكيات الفاعلين بميزة قصدية و بالتالي هي حالة وجود لوضعية الأفعال " (Raymond Boudon , 2009 p199)، و لفهم هذه الدلالة للفعل الاجتماعي في مضمونه التربوي يتم تقديم مثالين:

- الأول يتعلق بطرح ماكس فيبر لأهداف التربية من حيث الماكروسوسيولوجيا Macrosociologie في مجال الديانات و السياسة للمجتمعات

- الثاني ما قدمه ريمون بودون كمثال في إطار الميكروسوسيولوجيا Microsociologie لتحليل الباحث الاجتماعي الإنجليزي بازيل برنستين حول العلاقة بين النجاح في التعليم و الأصول الاجتماعية .

- التأويل الفيبري للتربية وأنماط السلطة

في الموسوعة العالمية 1972 يعرض عالم الاجتماع الفرنسي جون كلود باسرون مقالا يبين فيه فرضية ماكس فيبر التي تتعلق بأن التصنيفات البيداغوجية الملاحظة تستند على تصنيف " الشرعيات البيداغوجية " Légitimités Pédagogiques (التكوين المتخصص، التكوين لنمط الحياة) حول النظام الاجتماعي في الصين الكونفوشوسية، و يعقب جون كلود باسرون أن العلاقات البيداغوجية هي علاقة قوة و هذا ما يزال صحيحا للبيداغوجيات الليبرالية و ليس السلطوية . (Guy Vincent,2009, p76)

في مجال أهداف التربية تاريخيا يوجد قطبين: من جهة موهبة الكاريزم Charisme (خصائص البطولة أو مواهب سحرية)، و من جهة أخرى التعليم المتخصص، فالنوع الأول يمثل البنية الكارزمية و الثاني البنية البيروقراطية. بين هذين المتناقضين الراديكاليين نجد كل أنواع التربية التي تريد التثقيف و يوجد عند التلميذ نوع محدد من نمط الحياة، سواء كانت لائكية أو دينية في كل الحالات هو نمط الحياة الذي يناسب المكانة. (ibid.p77.)

بالنسبة لماكس فيبر أن أهداف التربية لا تتحقق في المجتمع إلا من خلال مفهوم السلطة و دورها في تحديد العلاقات الاجتماعية و تعمل على ترسيخ مفهوم الطاعة عند الأفراد كمعتقد شرعي و عقلائي " هي قوة تدل على فرص انتصار إرادة الفرد داخل العلاقة الاجتماعية حتى وان كانت ضد كل المقاومات و لا يهم على ما تستند هذه الفرص...فرصة لإيجاد أفراد محددين مهنيين لطاعة نظام، كل السلطات تبحث عن إيقاظ و الحفاظ على الاعتقاد بشرعية هذه السلطة" (ibid. p78) و يمكن الإشارة إلى علاقات السلطة بالبيداغوجيا كمحدد شرعي للحفاظ على هذه السلطة و ديمومتها في الجدول أسفله.

أنواع الهيمنة أو السلطة	أنواع البيداغوجيا	الأهداف
-------------------------	-------------------	---------

الهيمنة أو السلطة الكاريزمية	فعل الإيقاظ Eveiller	ترسيخ الأعمال البطولية لمنح للمبتدئ روح جديدة أي ولادة جديدة، و إيقاظ تلك القدرة التي هي قوة فطرية في الإنسان
السلطة الشرعية-العقلانية	فعل الترويض Dresser	تربية التلاميذ على اكتساب مهارات عملية للأعمال الإدارية (إدارة المكتب، الورشة، مخابر...)
السلطة التقليدية	التشكيل Formaliser	تشكيل الطفل حسب الثقافة المثالية المهيمنة للمجتمع Homme de Culture

3.1.3. علاقة الأصل الاجتماعي بالنجاح في التعليم

تقوم الفرضية عند عالم الاجتماع الإنجليزي بازيل برنستين Basil Bernstein على أن العلاقات تتمظهر بين العائلات بصور مختلفة وهذا راجع إلى نوع طبقة الانتماء العائلي. هذه الاختلافات تحدد مثلا استعمال طرق و أساليب تتعلق بمتغير "النظام الصارم" نحو أبنائها داخل العائلة التي تنتهي إلى الطبقة الدنيا، في المقابل تتبع العائلة التي تنتهي إلى الطبقة العليا على أسلوب متغير "الإقناع الخاص".

هذان المتغيران النظام و الإقناع هما أشكال علائقية تشترك عبر النظام اللغوي لعملية التواصل عند العائلات، وهذه الفروقات حسب بازيل برنستين هي فروقات من النوع المعرفي Différences Cognitives الضمنية التي تعمل المدرسة على تعزيزها عبر النظام التعليمي. و حسب ريمون بودون معقبا على مثال برنستين أن التحليل ينتهي إلى براديغم المعرفة كالتالي " في النتيجة الفروق بين الطبقات ذات أشكال للعلاقات العائلية، فان أطفال الطبقات العليا تأتي إلى المدرسة مزودة بتعليم قبلي Préapprentissage حيث أطفال الطبقة الدنيا لا يستفيدون منه كثيرا." (Raymond Boudon, Op cite, p 232)

العجز اللغوي والشفرة Code

تتمحور أعمال بازيل برنستين في مجال سوسيولوجيا التربية حول علاقات الهيمنة بين الطبقات الاجتماعية في ضوء صفات التربية و العامل الاقتصادي، و دور النظام التعليمي في ترسيخ هذه الهيمنة عبر المناهج و المعارف داخل العملية التعليمية. تبرز هذه العلاقة كما يرى برنستين في الوظائف

الاجتماعية للغة عند الجماعات المختلفة و تأثيرها على تعلم الطفل الاجتماعي و استجابته التربوية حيث يحدد التقسيم الاجتماعي للطبقات نوعين من العائلة:

- العائلة المتومضعة أو المركزية Familles Positionnelles تتميز بوجود عناصر علائقية مترابطة فيما بينها حيث اللغة المشتركة أو العامة تتميز بشفرة أو رمز محدود Code Restreint في عملية الاتصال تستعمل فيها جمل قصيرة ذات قواعد نحوية بسيطة عادة غير منتهية الجملة ، أي عبارات متقطعة و مبتورة و استعمال الصفات في التواصل اللغوي محدود و تعميم ضعيف للرموز و تفضل فيه الوصف على التحليل في القضايا. هذا النوع من النموذج المثالي تتصف به عائلات الطبقة الدنيا أو طبقة العمال.

- العائلة الموجهة نحو الشخص Famille Orientée vers la Personne و هي العائلة التي تقوم في علاقاتها على التفاهم، و تستعمل هذا النوع من العائلات اللغة الشكلية التي تتميز بشفرة أو رمز متطور Code Elaboré بتنظيم للقواعد النحوية و استعمال التحليل بدل الوصف و البناءات المنطقية، و تهتم في تربية الأبناء على القيم المجردة و العالمية و يستعمل هذا النوع من النموذج المثالي عند الطبقة العليا.

يرى بازيل برنستين هذه الوضعية من حيث التواصل اللغوي داخل العائلات ، أن المدرسة هي فضاء لتعزيز اللغة الشكلية ذات الرمز المتطور باعتباره شفرة مرجعية قريبة من ثقافة الطبقة العليا، و بالتالي مهما أدت المدرسة من دور في تقليل فرص اللامساواة في التعليم تبقى دائما الفوارق الاجتماعية في أبعادها الاقتصادية و الثقافية مهمة في التحليل السوسيولوجي للظواهر التربوية .

4. براديفمات محددة Paradigmes Déterminants

1.4. الاندماج الاجتماعي

يطرح البراديفم المحدد من نوع وظيفي (تحليل عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز) مفهوم التوازن الاجتماعي في مقابل الصراع الاجتماعي من حيث تعلم الأدوار، و هي الملائمة بين نظام التوجيه المعياري Orientation Normative و نظام الفعل من أجل جمع الأفراد حول أهداف شرعية تمنحها المجتمع. فالنظام المعياري Système Normatif هو مؤسسة تتمظهر فيها العمليات المعرفية و الوجدانية و التقويمية للمواقف من تعلم الأدوار تبعا للمراكز بحيث يكون النظام المعياري ملزم للجماعة" المؤسسات هي أنظمة معيارية و هي أساليب للعمل ، للشعور، للتفكير "متبلورة" Cristallisés تقريبا ثابتة و ملزمة و متميزة لجماعة اجتماعية... هي قواعد اللعبة المرتبطة بقدرات الفاعل التي تسمح ببعض الكفاءات حيث البعض مشروعة و الأخرى ليست كذلك". (Nathalie Bulle, Op cite, p103)

يمثل الاندماج الاجتماعي مؤشر قوي و دال على التوازن في المجتمع و مؤسس على قيم موزعة من خلال الإجماع Consensus و يرى تالكوت بارسونز انه يوجد في المدرسة نسقين الأول محدد Identifiant مع المعلم و الثاني نسق التعلم Système d' apprentissage يحدد دور التلميذ في العملية التعليمية فالمعلم منوط بدور في إطار نسق التوجيه القيمي للاهتمام بتحقيق القيم العالمية عبر المدرسة و لا ينصب على تحقيق احتياجات التلميذ، و التوجيه القيمي له بعدان: (Nathalie Bulle, Op cite, pp105-106)

- البعد الأول معرفي: يتعلق بالاستعدادات المعرفية و الفكرية

- البعد الثاني أخلاقي: نشر القيم العالمية من خلال مفهوم المواطنة (مبادئ التعاون، الاحترام، المسؤولية، العمل).

عن طريق الاندماج و التنشئة فالمدرسة تزيد من المساواة في الفرص الاجتماعية المعاصرة ككل المؤسسات الاجتماعية و أكد بارسونز على دور "وكالة التنشئة الاجتماعية" في ظل المجتمعات " فهي في نظره بإخراجها للطفل من العالم الأسري و من قيمة التي تبقى تعبيرية قبل كل شيء تلقنه القيم الأداتية Valeurs Instrumentales السائدة في المجتمع... تمثل المدرسة بصفة جليلة عاملا للتحرر و التقدم الجماعي" (عبد الكريم غريب; 2009، ص55)

2.4. الهابيتوس منتج للتمايز

تتجه أعمال عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو Pierre Bourdieu إلى الدور الذي تؤديه العوامل التربوية و التعليمية في الحقل التعليمي كشكل من أشكال رأسمال رمزي Capital Symbolique في السيطرة على العلاقات، باعتبارها علاقات قوى رمزية تمرر عبر النظام التربوي لاحتلال مواقع اجتماعية. يحلل بيار بورديو علاقة النجاح بالأصل الاجتماعي للطلبة حيث أن التعليم نظام فعال و مقنع و يمرر بدون انتباه كنوع من تعسف ثقافي، تقنع الآخرين على أنه موهبة. و هو يعود إلى المهارات و الكفاءات الفردية و تقنع الخاسرين الذين لا يمتلكون رأسمال ثقافي قريب من ثقافة المدرسة بالرضا للواقع القائم.

إن ديمومة و استمرار إعادة إنتاج الطبقة حيث يمثل الهابيتوس Habitus مفتاح لفهم الممارسات الممكنة لثقافة الطبقة المهيمنة لتمرر امتيازاتها و تستحضره في مواقفها " فالمفهوم يحمل ثقلا نظريا كبيرا مما قاد احد النقاد المتعاطفين إلى وصفه باعتباره آلهة نظرية، يربط بورديو بواسطتها البنى الموضوعية

بالنشاط الفردي" (ديفيد سوارتز، 2014، ص 141) فهو يعمل في كل لحظة كمجموعة من الأنماط المتواترة و المستقرة المستدمجة للفاعلين و يقرأ على النحو التالي " نسق الخطط المتينة المكتسبة من التصورات و الفكر و الفعل يتولد عن أوضاع اجتماعية موضوعية لكنه يميل إلى الاستمرار حتى بعد تغيير تلك الأوضاع " (رث والاس، السون وولف، 2010، ص199). يمكن ترجمة بنية الهيمنة من خلال الشكل التالي حيث أن الأصل الاجتماعي للآباء يستمر في التأثير و تحديد في توقع المكانة الاجتماعية كسيرورة حتمية Déterminante عبر انتقاء اجتماعي للشهادات للأبناء.

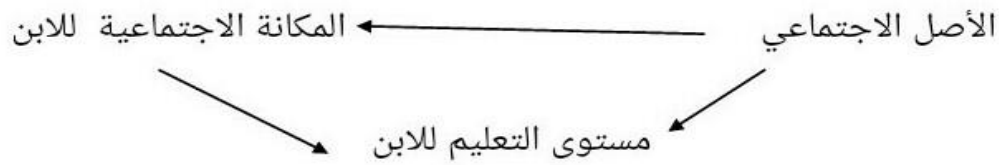
الأصل الاجتماعي للأب ← المستوى التعليمي للابن ← المكانة الاجتماعية للابن

5. براديغم الاختيار العقلاني

مصطلح المنهجية الفردانية Individualisme Méthodologique ظهر في 1871 عند كارل منجر (عالم اقتصاد نمساوي نيوكلاسيكي) و استمرت كذلك مع عالم الاقتصاد جوزيف شومتر في مجال علم الاجتماع، وأصبح محور في السوسيولوجيا الفهمية عند ماكس فيبر. إذ تستند هذه النظرية في تحليلاتها إلى المبادرة الفردية في اتخاذ قراراته و التي هي نتائج لهذه المبادرة.

يعتبر عالم الاجتماع الفرنسي ريمون بودون Raymond Boudon أحد أهم المنظرين و المدافعين بقوة عن المنهجية الفردانية و التي هي أهم اتجاه في السوسيولوجيا المعاصرة عموما و على وجه الخصوص في تحليل و تفسير القضايا التربوية من منظور براديغم الاختيار العقلاني في فهم إشكاليات التعليم، باعتبار الفرد وحدة مرجعية في التحليل السوسيولوجي للقضايا التربوية" مصطلح العقلانية المستلهم من نظريات الفاعل الاقتصادي يمثل مفهوم مركزي للتفسير يترجم وجود علاقة ليست محددة و لكن مفهومة بين وضعية الفاعل وفعله.

إن عقلانية الفاعل الاجتماعي هي بالفعل: "محدودة"، "ذاتية"، "إجرائية"، "معرفية"، "الخ..." (Nathalie Bulle, Op cite, p 84) . يوظف ريمون بودون المنهجية الفردانية في فهم استراتيجيات الاختيارات العقلانية لدى التلميذ في النظام التعليمي . في تحليل ريمون بودون أن في الفضاء المدرسي لا يوجد تطابق بين البنية التعليمية (توزيع التلاميذ حسب الشهادات) وبين البنية الاجتماعية (توزيع المواقع الاجتماعية). " إن ما يريد بودون توضيحه في مساهمته يتمثل في أن بناء خيارات الفرد يجعل مثل هذه المخرجات محتومة تماما و يوضح أننا نريد ان نفعل أفضل من هذا بكثير لننظر إلى التناقضات التي تنشأ من تجمع قرارات الفرد أكثر مما تنشأ من التفسيرات الثقافية لما حصل" (رث والاس، السون وولف، 2010، ص531)



يتعلق هذا الاختيار في استراتيجيات أفراد بالتكلفة و الفوائد، حيث يختار التلميذ و أسرته المسلك الأكثر مردودية تبعاً لمصلحتهما. فمن الناحية النفعية أن ابن الإطار أو الفئات العليا في التدرج الاجتماعي أن يتحصل على شهادة البكالوريا أفضل من شهادة التعليم المتوسط تفادياً لمخاطر الانحدار الاجتماعي أو حراك اجتماعي تنازلي، في حين أن ابن العامل البسيط يمكن بشهادة التعليم المتوسط في حساباته و اختياراته العقلانية أن احتمال الارتقاء قد يكون مضموناً.

إن قرار التلميذ يأخذ في الحسبان مع تقديرات الفوائد أو العائدات "المبرحة" مع تحمل التكلفة سواء كانت مادية أو نفسية، فالاستراتيجية التعليمية للفاعل تتضمن تنسيق بين التكلفة و المخاطر لاتخاذ القرارات و الحصول على فوائد أو أرباح المنتظرة. من خلال الشكل يبين ريمون بودون بنية إيديولوجية الاستحقاق Idéologie Méritocratique في مقابل بنية إيديولوجية الموهبة Idéologie du Don لبيار بورديو، وكيف أن الأصل الاجتماعي للأب لا يحدد و لا يؤثر بالضرورة على المكانة الاجتماعية للابن بل يرجع إلى اختيارات الفرد و العائلة معاً.

إن توزيع مستويات التلقين ينتج عن تجميع تصرفات فردية، لا يمكن اعتبارها متحررة من إكراها بنيوية صرفة، بينما ينفلت توزيع الوضعيات الاجتماعية بصفة تامة تقريباً من المبادرات الفردية، و ذلك لأن هذا التوزيع يتم تحديده بشكل أوسع من قبل إكراهات اقتصادية. و كولوجية. (عبد الكريم غريب، 2009، ص 68).

أضحت اليوم سوسيولوجيا التربية في قلب الاهتمامات في الحقل المعرفي الإنساني والاجتماعي لفهم الظواهر التربوية و اشكالياتها على مستوى الماكروسوسيولوجيا و الميكروسوسيولوجيا و من المحلي إلى العالمي. لذا فإن الاهتمام بسوسيولوجيا التربية اقتحم كل مجالات الحياة الاجتماعية كتخصص علمي و تربوي نتجت عنه بناءات نظرية قيمة، و مجموع من الدراسات تتسم باتساقها و الطابع التراكمي مس كل الفاعلين في المجتمع من الفرد، الأسرة، المؤسسات، الجماعات، التنظيمات، الدول، الأمم.

المراجع

- بيرسي، كوهن. (1985). "النظرية الاجتماعية الحديثة"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر.

• توماس، كون.(2007). "بنية الثورات العلمية". ترجمة حيدر حاج إسماعيل، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 ، بيروت، لبنان.

• ديفيد، سوارتز.(2014). "الثقافة و القوة ،علم اجتماع بيار بورديو". ترجمة عبد الكريم الحوراني، دار المجدلوي للنشر و التوزيع، عمان، الأردن.

• رث ،والاس. السون ،وولف(2010). "النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، تمدد آفاق النظرية الكلاسيكية". ترجمة محمد عبد الكريم الحوراني، دار المجدلوي للنشر و التوزيع، عمان الأردن.

• عبد الكريم، غريب.(2009). "سوسيولوجيا المدرسة". مطبعة النجاح الجديدة، الدر البيضاء، المغرب.

- Karl, Marc, & Frédéric, Engels, (1976). " Critique de l'éducation et de l'enseignement, Introduction". Traduction et notes de Roger Dangeville <http://www.classiques.uqac.ca>
- Angèle Kremer, Marietti. " Le paradigme scientifique : cadres théoriques, perception, mutation". www.dogma.lu/pdf/AKM-ParadigmeScientifique.pdf.
- Guy ,Vincent.(2009). " les types sociologique d'éducation selon Max Weber". revue française de pédagogie juillet- aout-septembre.
- Masterman, Margaret. "The nature of a paradigm .in Gilles Willet, Paradigme, Théorie, Modèle, Schéma, qu'est-ce donc". www.communicationorganisation.revues.org/1873.
- Nathalie, Bulle .(2000). "Sociologie et Education". Presse universitaires de France, 1édition, Paris, France.
- Pierre, Dandurand, & Émile ,Ollivier .(1987). " Les paradigmes perdus. Essai sur la sociologie de l'éducation et son objet". Un article publié dans la revue Sociologie et sociétés, vol. XIX, no 2, Montréal, Les Presses de l'Université de Montréal, Canada.
- Raymond ,Boudon.(2009). "Effets pervers et Ordre social". Presses universitaires de France ,3 édition, Paris, France.